٥ ـ فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمـــــة

تخير فريزر أربعة من النظم الاجتماعية ليبين ما للخرافة من أثر فى نشأتها وتكوينها. وهى: الحكومة، والملكية الفردية، والزواج، واحترام الحياة الانسانية. فأثبت فى وضوح أن الخرافة ساعدت على تأييد الحكومة وبسط نفوذها، وكانت عاملاً قوياً من عوامل الأمن والنظام. وثبتت كذلك دعائم الملكية الشخصية وسيرتها مقدسة بحيث أصبحت فى مأمن من السلب والعدوان، واستطاع أصحابها أن ينتفعوا بها تمام الانتفاع. وحاربت الزنا والزناة فدفعت الناس إلى الزواج وحببتهم فى الحياة الأسرية. ثم صورت الخرافة أخيراً الموتى والقتلى فى صورة أشباح عظيمة الهول وأرواح تنتقم ممن اعتدى عليها، فكان فى هذا ما صرف الناس عن سفك الدماء ودفعهم إلى احترام الحياة الانسانية؛ وهذه النظم الأربعة هى عماد البناء الاجتماعى بأسره، إذا اضطرب واحد منها اضطربت له الجمعية كلها. فكأن الخرافة لم تؤثر فى بعض النظم الاجتماعية فحسب، بل أثرت فى عناصر الحضارة والتقدم على اختلافها. هى شر جاء من طريقه خير كثير، وخطأ فى ذاتها إلا أنها هدت الناس إلى صواب عظيم. وليس يعنى الجمعية أن تكون مدفوعة إلى الخير ببواعث خيرة بقدر ما يعنيها أن تصل إلى هذا الخير من أى طريق كان وكيفما كانت الدوافع. والأفراد أنفسهم لا يخرجون عن هذا القانون ولا يتعدون هذا النظام، إذ ما دامت أعمالنا طيبة، فليس يعنى الغير كثيراً أن تكون نوايانا صالحة. ولئن ملأت الخرافة أدمغة الناس بخزعبلات لا حصر لها وقادتهم إلى أخطر الويلات، لمن الظلم أن ننسى أياديها فى الترفيه عن الانسانية والدفاع عن المجتمع. وكفاها احساناً أنها هيأت للعجزة، والضعفاء، والجهلة، وناقصى العقول وسيلة من وسائل العمل الصالح وسلكت بهم سبل الخير. فهى كالعود قد ينقذ غريقاً، أو كالفنار الضئيل الذى، وإن لم يتجاوز ضوؤه ظله، يهدى كثيراً من المارة وعابرى السبيل

تابعنا فريزر فى المقالات السابقة، وسرنا وراءه خطوة خطوة رجاء أن نعرض صورة كاملة من آرائه وأبحاثه. وعلّ القارئ قد تبين فى هذه الصورة غزارة مادة العالم الانجليزى وسعة اطلاعه وتمكنه من موضوعه. فهو لا يكتفى بأن يدرس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لدى قبيلة أو شعب أو طائفة، وإنما يستقرى الشعوب ويتتبع الجميات على اختلافها: فمن زنوج إفريقية إلى هنود أمريكا، ومن متوحشى استراليا إلى سكان الهند والصين، ومن القبائل الهمجية إلى الأمم المتحضرة، ومن العصور القديمة إلى التاريخ المتوسط والحديث. تشهد أمثلته، فوق غزارتها، وحسن اختيارها، بدقة الملاحظة والتعمق فى البحث. هذا إلى خيال رائع، وأسلوب جذاب، وأحكام متواضعة لا زهو فيها ولا ادعاء، ولا مبالغة، ولا تهويل، قد أملتها دراسة هادئة، واستنبطتها عقلية متزنة. ويكفى للبرهنة على ذلك أن نسرد الفقرة التالية التى ختم بها فريزر بحثه إذ يقول: «هاكم، سيداتى وسادتى، دفاعى عن الخرافة الذى قد يُعرض تخفيفاً عن هذا المتهم الساقط حين يقف بين يدى القضاة، ومع هذا سيحكم عليه بالاعدام لا محالة؛ غير أن هذا الحكم لن ينفذ فى جيلنا الحاضر، وسيبقى موقوف التنفيذ إلى أجل بعيد. وما أنا إلا محام ـ لا خصم ـ يتقدم إليكم الليلة. وقد كانت محكمة أثينا العليا لا تقضى فى الجنايات إلا ليلاً، لهذا تخيرت الليل للدفاع عن سلطان الظلام. والآن، ونحن فى ساعة متأخرة، يجدر بى أن أختفى مع موكلى الأشأم قبل أن يصيح الديك، ويبدو ضوء الفجر الرمادى فى الأفق[1]»

وفى دراسة فريزر للخرافة ناحية أخرى جديرة بالتقدير، ذلك أنه أخذ على عاتقه نصرة قضية يتبادر إلى الذهن بطلانها. يكاد يجمع الناس على أن الخرافة مبعث شر ومثار فتنة؛ ويأبى فريزر إلا أن يخرج على هذا الاجماع معلناً أن فى باطن هذا الشر خيراً عظيماً وأن الخرافة أساس النظم الاجتماعية الهامة. وقد نجح نجاحاً كبيراً فى اثبات دعواه والبرهنة على ما كان يرمى إليه. بيد أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن ما يسميه فريزر خرافة هو فى

(1) Frazer, L' avocat du diable, pp. 294 — 95

رأى ممتنقيه دين وعقيدة . فالمعجى يخضع للملوك والحكام خضوع الموقن بسلطانهم الخارق للعادة وهيبتهم الصادرة عن السماء ، ويؤمن بأن مال سيده ورئيسه مقدس فلا يمسه بسوء ، ويعتقد أن الزنا مجلبة للصواعق والجدب والقحط فلا يقربه ، ويخشى الأرواح والأشباح خشية الواثق من وجودها فلا يقتل نفساً ولا يسفك دماً . ولو خالجه الشك يوماً فى هذه المعتقدات ما انقاد لها ، ولو جال بخاطره أنها تمت إلى الخرافة بصلة لنبذها نبذ النواة . نعم إن من الديانات ما هو حق ومنها ما هو باطل ؛ ولكن الفكرة ، صواباً كانت أم خطأ ، متى اكتست بكساء الدين أضحت قوة هائلة وأثرت فى المجتمع تأثيراً نافعاً . ولو لم يكن للأديان إلا هذا النفوذ فى قيادة الشعوب والتأثير فى الجماهير لكفى فى نصرتها والاستمساك بها

ونستطيع أن نأخذ على فريزر — فوق هذا — عنايته بالأمثلة وتعلقه بالحوادث الجزئية أكثر من بحثه عن القواعد الشاملة والقوانين العامة . وهذا نقد يصدق على مدرسة الاجتماع الانجليزية الحديثة بأسرها التى قامت أعمالها أولا وبالذات على الرحلة والمشاهدة دون أن تعير النظريات والضوابط اهتماماً كبيراً ، وقد جاراها فريزر فى هذا التيار . انظر أى كتاب من كتب سبنسر أو وسترمرك أو تيلور الاجتماعية مثلاً تجد أنك تنتقل من مشاهدة إلى مشاهدة ومن مثال إلى آخر ، وقل أن تظفر بقضية عامة أو أصل ثابت . نحن لا ننكر أن هذه الطريقة أفادت علم الاجتماع مادة غزيرة وثروة طائلة ، إلا أن هذه المادة لم تهيأ بعد للتغذية ، وهذه الثروة لما تستثمر . هى مادة أولية « خام » ، ان صح هذا التعبير ، فى حاجة إلى من يستخلص منها روحها وما حوت من أسرار . وقد فطن علماء الاجتماع الفرنسيون — وهم أبعد الناس عن السفر وأرغبهم عن الرحلة — إلى هذا النقص فكملوه ، واستغلوا التجارب والمشاهدات الانجليزية استغلالاً حسناً ، وصاغوا المعلومات الاجتماعية فى القوالب العلمية الحق . فاذا كان علم الاجتماع مديناً لرحالة الانجليز والأمريكان بما فيه من مشاهدات جزئية وحوادث واقعية ، فان الفضل فى كثير من نظرياته وقوانينه يرجع إلى المدارس الفرنسية

ومهما يكن فهناك نقطتان هامتان نخرج بهما من أبحاثنا السابقة فى الخرافة ، أولاهما خاصة بمصر والشرق فى جملته ، وتتلخص فى أنه يسود هذه الديار قدر وفير من الخرافات أشرنا إليها سلفاً . فالخرافة متوغلة فى كثير من معتقداتنا وعباداتنا ، فى عاداتنا وتقاليدنا ، فى آرائنا وأفكارنا . وليس معنى هذا أن أوربا خالية من أية خرافة ؛ كلا فللغرب خرافات كما للشرق ، والجميات على اختلافها لا تستطيع أن تتخلى عن مجموعة من الخرافات ترى فيها غذاء لميولها وأحلامها . ولكن مما لا شك فيه أن الخرافة وجدت بين ظهرانينا مرتعاً خصيباً فنمت وترعرعت . وما أجدرنا بأن ندرس خرافاتنا لنعرف أصلها ونشأتها وصلتها بالخرافات العالمية الأخرى ؛ وبذا نستطيع معالجتها أو مطاردتها والتخلص منها . فخرافة « الزار » مثلاً ظاهرة اجتماعية تتطلب دراسة تاريخية مقارنة فيها كثير من بواعث السرور ووسائل التشويق . وما تحيرنا الخرافة بين الأبحاث الاجتماعية الكثيرة إلا لنلفت الأنظار إلى هذه الأرض الخصبة التى لم تستكشف وهذا العمل الذى لم يبدأ فيه بعد

وقد لاحظنا من قبل اجماع بعض القبائل على اعتناق خرافة ما ؛ وفى هذا ما يؤذن أن للانسانية ، وإن تنوعت بتنوع البيئة والوسط ، تراثاً عاماً يأخذه الخلف عن السلف ؛ وأن الانسان المتحضر ليس إلا صورة مهذبة للانسان المتوحش . نحن فى كثير من آرائنا وعاداتنا وتقاليدنا عالة على من كان قبلنا ، بل تكاد تكون شخصيتنا ونظام تفكيرنا من صنع القرون الغابرة . فلندرس إذن النظم الاجتماعية على ضوء التاريخ ان كنا نريد فهمها على وجهها الصحيح ، لاسيما ونحن مخدوعون غالباً بما ألفناه . فكثيراً ما يلبس الشىء فى أعيننا لباس العقل والمنطق فى حين أنه يعتمد على أساس خرافى وأصل ضعيف . وكم من عمل عادى فردى أو جمعى نقوم به اليوم دون أن نعيره أية أهمية فى حين أنه كان بالأمس ذا صلة بعقيدة خاصة أو عبادة محترمة . وقد تنبه علماء الاجتماع المحدثون إلى هذا فشرحوا لنا أموراً ما كنا نفكر فى سردها وتعليلها . وعلى الجملة فالانسانية أشبه ما تكون بشجرة ممتدة الأغصان مترامية الأطراف قد مرت عليها عصور طويلة وأجيال كثيرة ، ولا يمكن فهم طبيعتها وفصيلتها والمؤثرات فى ثمرتها إلا إن بدأنا بجذورها الأولى وعرفنا كيف نمت وتكونت

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة